

التحرير والتنوير

وطاهر تركيب الآية أن قوله (سواء محياهم ومماتهم) داخل في الحساب المنكور فيكون المعنى : إنكار أن يستوي المشركون مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات فكما خالف بين حالهم في الحياة الدنيا فجعل فريقا كفرة مسيئين وفريقا مؤمنين محسنين فكذلك سيخالف بين حالهم في الممات فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الممات هول ما توعدهم الله به ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وعدوا به ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه .

كاف من البديل موقع (محياهم سواء) جملة موقع فيكون مرفوعا (سواء) الجمهور وقرأ A E التشبيه التي هي بمعنى مثل على ما ذهب إليه صاحب الكشاف يريد أنه بدل مطابق لأن الجملة تبدل من المفرد على الأصح والبديل المطابق هو عطف البيان عند التحقيق فيكون جملة (سواء محياهم ومماتهم) بيان ما حسبه المشركون . وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف منصوبا فلفظ (سواء) وحده بدل من كاف المماثلة بدل مفرد من مفرد أو حال من ضمير النسب في (نجعلهم) .

وهذا لأن المشركين قالوا للمسلمين : سنكون بعد الموت خيرا منكم كما كنا في الحياة خيرا منكم .

فضمير (محياهم) وضمير (مماتهم) عائدان لكل من الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا على التوزيع أي محيا كل مساو لمماته أي لا يتبدل حال الفريقين بعد الممات بل يكونون بعد الممات كما كانوا في الحياة غير أن موقع كاف التمثيل في قوله (كالذين آمنوا) ليس واضح الملاقاة لحسابان المشركين المسلط عليه الإنكار لأنهم إنما حسبوا أن يكونوا بعد الممات " على تقدير وقوع البعث " أحسن حالا من المؤمنين لا أن يكونوا مثل المؤمنين لأنهم قالوا ذلك في مقام التطاول على المؤمنين وإرادة إفحامهم بسفستهم . فبنا أن نبين موقع هذا الكاف في الآية .

والذي أرى : أن موقعه الإيماء إلى أن الله قدر للمؤمنين حسن الحال بعد الممات حتى صار ذلك المقدر مضرب الأمثال ومناط التشبيه وإلى أن حسابان المشركين أنفسهم في الآخرة على حالة حسنة باطل فعبر عن حسابانهم الباطل بأنهم أثبتوا لأنفسهم في الآخرة الحال التي هي حال المؤمنين أي حسب المشركون بزعمهم أن يكونوا بعد الموت في حالة إذا أراد الواصف أن يصفها وصفها بمشابهة حال المؤمنين في عند الله وفي نفس الأمر وليس المراد أن المشركين مثلوا حالهم بحال المؤمنين فيؤول قوله (كالذين آمنوا) إلى حكاية الكلام المحكي بعبارة

تساويه لا بعبارة قائله وذلك مما يتوسع فيه في حكاية الأقوال كقوله تعالى حكاية عن عيسى (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا ا ربى وربكم) فإن ما أمره ا به : أن اعبدوا ا ربك وربهم وذلك من خلاف مقتضى الظاهر دعا ا هنا قصد التنويه بالمؤمنين والعناية بزلفاهم عند ا فكأنه قيل : احسبوا أن نجعلهم في حالة حسنة ولكن هذا المأمول في حسابناهم هو في نفس الأمر حال المؤمنين لا حالهم . فأوجز الكلام وفهم السامع ببسطه . والمواجه بهذا الكلام هم النبي والمؤمنون تكملة للغرض المبدأ به في قوله (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام ا) .

على أن لك أن تجعل قوله تعالى (كالذين آمنوا) معترضا بين مفعولي (نجعل) وهما ضميرا الغائبين وجملة (سواء محياهم) أو ولفظ (سواء) في قراءة نصبه فلا يكون مرادا إدخاله في حسابان المشركين . ويجوز على هذا أن يكون قوله (كالذين آمنوا) تهكما على المشركين في حسابناهم تأكيدا للإنكار عليهم .

ومن خلاف ظاهر التركيب ما قيل : إن مدلول (سواء محياهم ومماتهم) ليس من حسابان المشركين المنكور ولكنه كلام مستأنف والمعنى : أنه لما أنكر حسابان استواء الكافرين والمؤمنين خطر ببال السامع أن يسأل كيف واقع حال الفريقين فأجيب بأن حال محياهم وهو مقياس حال مماتهم أي حالهم في الآخرة مختلف كما هو في الدنيا مختلف فالمؤمنون يحيون في الإقبال على ربهم ورجاء فضله والكافرون يعيشون معرضين عن عبادة ربهم آيسين من البعث والجزاء . وهذا ليس عين الجواب ولكنه من الاكتفاء بعلة الجواب عن ذكره . والتقدير : حال الفريقين مختلف في الآخرة كما كان مختلفا في الحياة .

وجملة (ساء ما يحكمون) تذييل لما قبلها من إنكار حسابناهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني